

تفسير ابن كثير

لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضَرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ

يقول تعالى معظما لأمر القرآن ، ومبينا علو قدره ، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب ،

وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد والوعيد الأكيد : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل

لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله) أي : فإن كان الجبل في غلظته وقساوته ، لو فهم

هذا القرآن فتدبر ما فيه ، لخشع وتتصدع من خوف الله ، عز وجل ، فكيف يليق بكم

أيها البشر ألا تلين قلوبكم وتخشع ، وتتصدع من خشية الله ، وقد فهمتم عن الله أمره

وتدبرتم كتابه ؟ ولهذا قال تعالى : (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) . قال

العوفي : عن ابن عباس في قوله : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا) إلى

آخرها ، يقول : لو أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه ، لتصدع وخشع من ثقله ،

ومن خشية الله . فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة

والتخشع . ثم قال : كذلك يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون . وكذا قال قتادة ،

وابن جرير. وقد ثبت في الحديث المتواتر : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما عمل

له المنبر ، وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد ، فلما وضع

المنبر أول ما وضع ، وجاء النبي - صلى الله عليه وسلم - ليخطب فجاوز الجذع إلى نحو

المنبر ، فعند ذلك حن الجذع وجعل يئن كما يئن الصبي الذي يسكن ، لما كان يسمع

من الذكر والوحي عنده . ففي بعض روايات هذا الحديث قال الحسن البصري بعد إيراده

: " فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الجذع " . وهكذا

هذه الآية الكريمة ، إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته ، لخشعت

وتصدعت من خشيته فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم ؟ وقد قال تعالى : (ولو أن قرآنا

سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى) الآية [الرعد : 31] . وقد تقدم

أن معنى ذلك : أي لكان هذا القرآن . وقال تعالى : (وإن من الحجارة لما يتفجر منه

الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله) [البقرة :